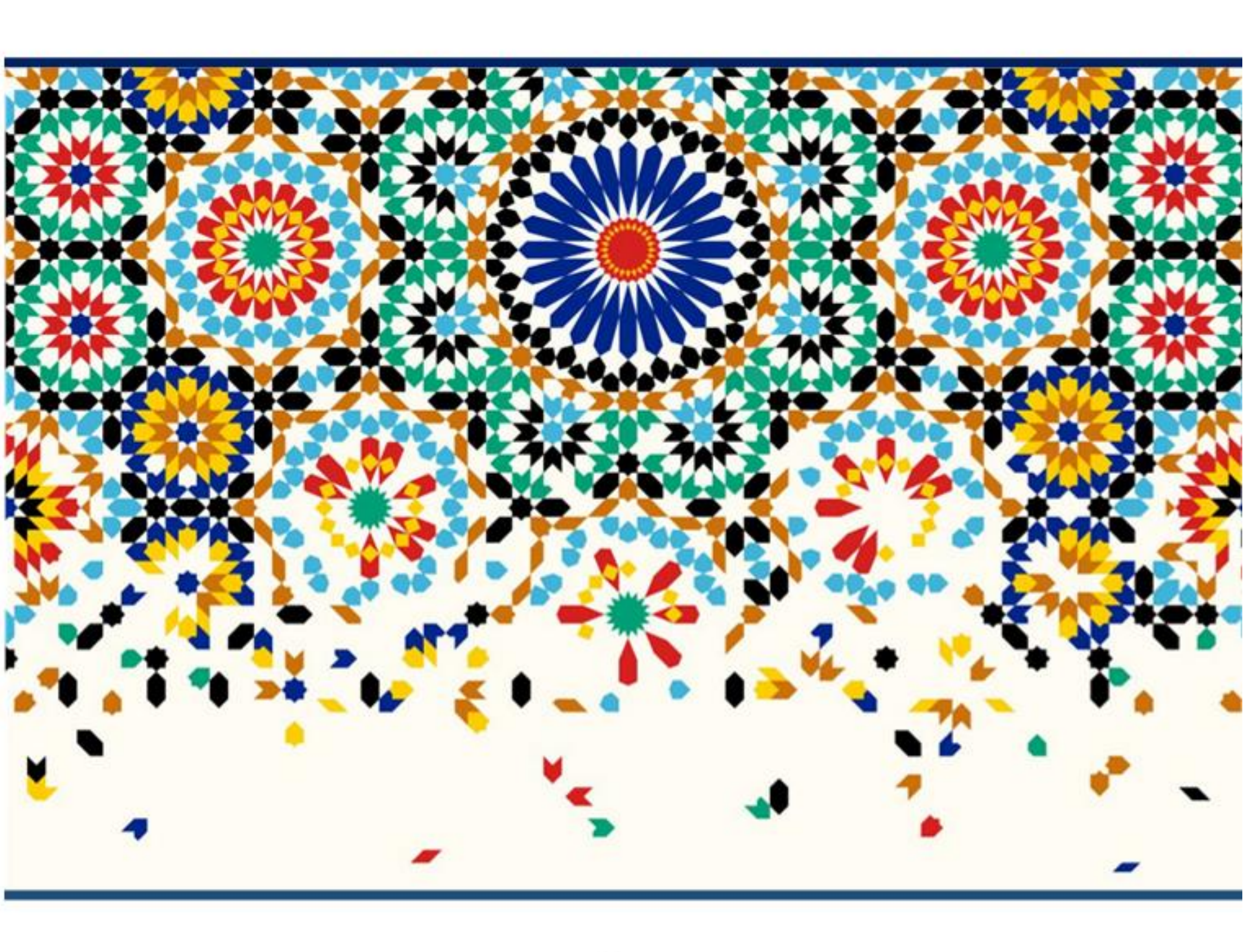
قوة النفس، وشكيمة القلب

-ابن تيمية أنموذجًا-



د. محمد آل رميح



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمن جليل أخلاق العلماء المصلحين وعظيم صفات الدعاة الصالحين؛ قوة القلب وجسارة النفس وثبات الجنان والصلابة على الحق.

فلا زال الحق له معارضوه، ولا زال الوحي له أعداؤه؛ فإذا لم ينتصب للدفع عن وجه الحق ذوو شكيمة وتصلّب وثبات؛ زُعزِع الحق، وحرّف الوحي، وصار حملته مقهورين مذلولين.

ولقد كان في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية مواقف أبية، وأخبارٌ شريفة، وفقه الله فيها للثبات على الحق، والتصلب في ذات الله، حتى صارت هذه السمة علَمًا على ابن تيمية، لا تكاد تُذكر إلا أشير بالأصابع عليه!

وإنّ في جمع هذه الأخبار ومؤالفتها وضمّها لبعضها؛ تذكرةً لأهل الدعوة، وتبصرةً لأهل الإصلاح، تقوى بها قلوبهم، وتُشد بها أفئدتهم.

وهذه جملةٌ من هذه الأخبار، وبعضٌ من هذه الأنباء أتيتُ بها مختصرًا ليقرأها المنتفع على عجَل، ويعْلَقها بلا ريث، والله المستعان.

- لقد كان شيخ الإسلام متصلب الرأي ثابت الجنان بما يراه حقًا حتى وهو في حال يتضعضع فيه الكثير.

ومن عجيب ما اتفق له إنّ ركن الدين بيبرس لما خلع السلطان الناصر، أراد أن يبايعه العلماء فبايعوه ولم يقف في وجهه أحد، فقال: بقي فقيه في السجن يقال له: ابن تيمية!

فاستدعاه، فلما أتى قال: إني استدعيتك لأن السلطان الناصر خلع نفسه، وقد اتفق المسلمون على مبايعتي!

فقال ابن تيمية: ومن يشهد على النّاصر بذلك؟

فقال الأمير: عندنا منه كتاب بخط يده!

فقال ابن تيمية: أين الكتاب؟

فأحضروه له، فقال: من يشهد أن هذا خط الملك الناصر؟

فقال بيبرس: عندنا من يشهد!

فأتوا بشخص، فقرّره ابن تيمية هل يشهد على أنه خط الملك، فقال الشاهد: أعرفه بالعلامة!

فأبى ابن تيمية! وقال: أريد من يشهد أنّ هذا خطه بيده بعزل نفسه!

فغضب الأمير، وقال: عندي من يشهد على لسان الملك الناصر.

فأتى بمملوكين للمنصور والد الملك الناصر، فقال ابن تيمية: هل لكما عتاقة من سيدكما؟

فقالا: لا!

فقال: لا تجوز شهادة العبد على مولاه، ورد شهادتهما!

فغضب الأمير، وشدد في حبس ابن تيمية، وجرت أمور طويلة في صفة خروجه بعد.

ومن القصص المشهورة التي وقعت له -رحمه الله- مع الأمير سيف الدين المنصوري، قطلوبك الكبير، أنّ الأمير أخذ مرة من تاجر شيئًا، وحال بينه وبين ثمنه، ولم يجد التاجر من يخلص حقه، فشكا حاله إلى ابن تيمية، فقام معه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الأمير، فلما دخل إليه قام له الأمير وأجلسه، وقال: شيخ! إذا رأيت الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير! وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الأمير وبئس الفقير!

فقال له ابن تيمية: اسمع قطلوبك! لا تعمل دركوانات العجم! -أي حيلهم وألاعيبهم- موسى ﷺ كان خيرًا مني، وفرعون كان أنحس منك، وكان موسى ﷺ يأتي إلى بابه كل يوم ويأمره بالإيمان!

أعط هذا التاجر ماله!

فقال: نعم، ووزن له الذي له!

ومن المواقف العظام التي تظهر قوة نفس هذا الهمام، وتبرز رباطة جأشه في الأحوال التي يتهزهز فيها الشجعان، وتبين استعلاءه على أهل الدنيا، وشموخ نفسه بالعلم والدعوة والإصلاح، أن السلطان الناصر قال له مرة: إنني أُخبِرتُ أنك قد أطاعك الناس! وأن في نفسك أخذ الملك! فرفع شيخ الإسلام صوته حتى سمعه كثير ممن حضر! وقال: أنا أفعل ذلك؟!

والله إن ملكك وملك المُغل لا يساوي عندي فلسين!

هكذا بعزّة العالم الإيمانية، وتساميه على أهل الدنيا؛ يبين لهم حقارة ما هم فيه، وتفاهة الشأن الذي يحرصون ويتنافسون عليه، حتى يظن بعضهم أن غيرهم ينفس عليهم ما هم فيه، ويحسدهم عليه!

ولقد كان السلطان الناصر محبًا لابن تيمية، مقربًا له، يعرف له علو منزلته، وصدقه، ولهذا لما أعاد الله له ملكه، كان من وقائع ما حدث أنه استدعى العلماء والكبراء، واجتمع عنده خلق منهم، فتكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف في كل سنة، زيادة على الحالية، ونحو ذلك مما فيه تخفيف من الصغار الذي هم عليه، فسكت الناس! وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني!

فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ -يستفتيهم في ذلك- فلم يتكلم أحد!

فجثى ابن تيمية على ركبتيه، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، وردّ على الوزير ما قاله ردًا عنيفًا، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته بترفق وتؤدة وتوقير!

ومواقفه مع السلاطين كثيرة مشتهرة، حتى رأيت من لطائف ذلك أن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري كان يصفه بأنه: "مذكّر الملوك والسلاطين".

• ولقد كان -رحمه الله- يقوي عزائم أصحابه، ويربي فيهم الاعتصام بالله إن نالهم بلاء، أو أحاط بهم كرب، فقد ذكر ابن رجب الشهاب أن عمر البلالي حدثه عن لقائه بابن تيمية في الحبس، وأنه وجد ما يجده الإنسان إن مسه البلاء، فذكر له أن ابن تيمية كتب له:

لا تقنطنّ وثق بالله إن له ألطاف   دقت عن الأذهان والفطن

يعطيك من لطفه ما ليس تعرفه   حتى تظنّ الذي قد كان لم يكن!

• وكان -رحمه الله- يقوم في الحق بنفسه، يستتيب المبتدعة، ويؤدبهم، ويأمر وينهى، وربما ضرب صاحب الباطل على ذلك، كما صنع مع إبراهيم المُوَلّه، حيث استتابه ابن تيمية وضربه على ترك الصلوات.

• وكان -رحمه الله- يقيمه الحق على كل أحد، لا يبالي بملام اللائمين، وعذل العاذلين، ويتصلب فيما يراه من الحق، ويأبى أن يترك الأمر والنهي، ومن أخباره مع الأحمدية أنهم أتوا إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر شيخ الإسلام، فسألوا من نائب السلطنة أن يكف الشيخ ابن تيمية إمارته عنهم!

فقال ابن تيمية: هذا ما يمكن! ولا بدّ لكلّ أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولًا وفعلًا، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه!.. ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه!

وأما الحادثة الشهيرة، والواقعة التي ظهر فيها من قوة الشيخ وثباته وصلابته في دين الله، فهي الحادثة التي وقعت مع البطائحية وكان ذلك في

يوم السبت في التاسع من جمادى الأولى سنة سبع مائة وخمس، وقد ذكر تفاصيلها ابن تيمية رحمه الله، فذكر أنه قد تقدمت له معهم وقائع متعددة بين فيها أحوالهم وما عندهم من حق وباطل، واستتاب منهم عددًا وأدّب منهم جماعة من شيوخهم وأنكر عليهم لبس أطواق الحديد، فلما نهاهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين.

ثم إنهم اجتمعوا عند قصر الأمير مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد واضطراب الرؤوس والأعضاء والتقلب في نهر بردى وإظهار التوله، واشتكوا ابن تيمية عند الأمير، وطلبوا أن يسلم إليهم حالهم، فأمر الأمير أن يجتمعوا مع ابن تيمية ليظهر مع من الحق، وقد كان هؤلاء القوم يظهرون أنّهم يدخلون النار، وأنها لا تضرهم.

فذكر ابن تيمية في هذه الحادثة أمرًا عجبًا، وأنه استخار الله تعالى تلك الليلة واستعانه واستنصره، قال: "فاستخرت الله واستعنته واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، **حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك! وأنها تكون بردًا وسلامًا على من اتبع ملة الخليل! وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل!**

فأصبح ابن تيمية وذهب للميعاد، قال: "فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع".

وذكر ابن تيمية أنه استخار الله سبحانه "أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم! ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوبا! فاستعظم الأمير هجومي على النار وقال: أتفعل ذلك؟

فقلت له: نعم!

قد استخرت الله في ذلك! وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد γ المتبعين له باطنا وظاهرا لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه؛ وجب علينا أن ننصر الله ورسوله γ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات. وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم! فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط بذلك وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده!"

وذكر فصلًا طويلًا فيما جرى في تلك الحادثة العظيمة.

ومن الأخبار الذائعة لابن تيمية رحمه الله أنه لم يزل بمصر يُعلّم الناس ويفتيهم، ويذكّر بالله ويدعو إليه، ويتكلم في الجوامع على المنابر بتفسير القرآن وغيره، من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، إلى أن ضاق منه خلق كثير وانحصروا، واجتمع كثير من المتصوفة واتفقوا على أن يشتكوا الشيخ إلى السلطان؛ فطلع منهم خلق إلى القلعة، وكانت منهم تحت القلعة ضجة شديدة، حتى قال السلطان: ما لهؤلاء؟

فقيل له: هؤلاء كلهم قد جاؤوا من أجل الشيخ تقي الدين ابن تيمية يشكون منه! ويقولون: إنه يسبّ مشايخهم، ويضع من قدرهم عند الناس! واستغاثوا فيه، وأجلبوا عليه، ودخلوا على الأمراء في أمره، ولم يُبقوا ممكنًا.

وفي ذلك الوقت ظهر من توكله ويقينه ما كان سببًا لظهور أمره، فإن بعض الناس أتوه وقالوا له: إن الناس قد جمعوا لك جمعًا كثيرًا!

فكان يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل!

وأمر السلطان أن يُعقد له مجلس بدار العدل، فعُقد له مجلس يوم الثلاثاء في العشر الأُول من شوال من سنة سبع وسبع مئة، وظهر في ذلك المجلس من علم الشيخ، وشجاعته وقوة قلبه، وصدق توكله، وبيان حجته؛ ما يتجاوز الوصف، وكان وقتًا مشهودًا ومجلسًا عظيمًا، كما يصفه ابن عبد الهادي.

حتى لما قال له كبير من المخالفين: من أين لك هذا؟

فقال له الشيخ: "من أين لا تعلمه"!

وَقد استفاد أصحابه منه تلك الوقفات الإيمانية، والصلابة الشرعية، فكانت الشيخة الصالحة العابدة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية -وكانت من العالمات الفاضلات- ممن يحضر مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية، فأخذت عنه الإنكار على أهل البدع، واستفادت منه القيام بالحق، فكانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم على الأحمدية، وتنكر أحوالهم، وتفعل من ذلك ما لا تقدر عليه الرجال!

وقد كان ابن تيمية -رحمه الله- يحرّض العلماء على القيام بالحق مثله، والشكيمة في نصر السنة، ومما ينقل في هذا أن شيخ الإسلام كان يقول للشيخ الزاهد كمال الدين عمر المراغي: ألا تكون مثلي؟ -أي في الرد على الحلولية والاتحادية- فكان الشيخ عمر يقول: لا أستطيع!

ومن أخباره في هذا أنه كان يبعث أصحابه ليقوموا بالحق وينكروا المنكر! كما بعث عماد الدّين الخشّاب إلى صيدنايا فلوث ما كان يعظمه النصارى بالغائط، وأهانها.

ولقد كان لقيامه بالحق ونصرته له أثره حتى في النصارى، فقد اجتمع به راهب من النصارى، وعاهد ابن تيمية أنه إذا لم يحصل لأصحابه أذى أن يسلم، وقد أسلم على يد شيخ الإسلام، رحمة الله عليه.

وكان شيخ الإسلام ربما لام أصحابه إذا بدا منهم شيء من التضعضع مع أهل الباطل، والتنازل عن الحق، ومن ذلك أن ابن تيمية سعى لجمال الدين المزي في ولاية دار الحديث الأشرفية، وكان حريصًا أن يتولاها مثله،

حتى كان يقول: لم يلِ هذه المدرسة من حين بنائها أحق بشرط الواقف منه، مع أنه قد وليها كبار، كابن الصلاح والنووي!

ولكن تعصب ضد المزي أقوام، ليمنعوه من ذلك، وذكروا أنه مخالف لشرط الواقف، بألّا يليها إلا أشعري، فكتب لهم المزي جُمَلًا يدفعهم بها ليوهمهم أنه أشعري مثلهم، ولكنهم كانوا يعرفون أنه إنما كتب ذلك مدافعة لهم، ولهذا لما درّس في المدرسة لم يحضر عنده كثير من الناس.

ولما كتب هذه الكتابة عتب عليه ابن تيمية، وقال: "يا شيخ بعت آخرتك بدنياك"!

فقد كان ابن تيمية مع تعظيمه للمزي يريد منه أن يكون مستعلنًا بعقيدته، قويًا في رأيه، يصرح ولا يلمح ولا يدّهن، فقال له هذه الكلمة العاتبة.

مع أنه قد كان للمزي وقفات مباركات، وقيام بالحق في وجه المبتدعة، فإنه قبل هذه الحادثة بنحو عشر سنين، لما وقعت المناظرة بين ابن تيمية وبعض الأشاعرة؛ قرأ المزي فصلًا في الرد على الجهمية من كتاب: خلق أفعال العباد للبخاري، تحت قبة النسر، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين، وشكوه إلى القاضي الشافعي ابن صصرى، وكان الصرصري هذا من أشد خصوم ابن تيمية، فسنحت له من هذا الأمر سانحة، فأمر بسجن المزي!

فغضب ابن تيمية رحمه الله من هذا، وقام في الأمر وقعد، وصنع صنيعًا لا يكاد يذكر عن غيره من علماء الإسلام ومصلحيه، فإنه لما بلغه هذا الأمر تألم له غاية الألم، وقام إلى السجن فأخرج المزي منه، وعظم الأمر، ولما بلغ نائب دمشق ذلك غضب وأمر بإعادة المزي للسجن، ولكن عافاه الله، وأمروا بعد ذلك بمدة قصيرة بالإفراج عنه.

ومن قرأ لابن تيمية وأدمن النظر في كلامه رآه يكتب بقلم ثابت وجنان ساكن، تعلو كلامه عزةٌ إيمانية، وتظلل تقريراته شكيمةٌ أثرية، وهذا ظاهر تجده منك على طرف الثمام، فما هو إلا أن تمد يدك إلى أي مصنف له رحمه الله، تجد ذلك ظاهرًا لا يحتاج إلى تفتيش.

انظر إليه وهو يقول لأحد ملوك الكفار الذين أسروا بعض المسلمين، وقد بعث إليه ابن تيمية برسالة طويلة، وكان منها: "ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية الذين يغتالون الملوك فيفرشها وعلى أفراسها! من قد بلغ الملك خبرهم؛ قديما وحديثا"!

وكتب في الصارم المسلول كلمة عظيمة في أحكام سب النبي ﷺ -بأبي هو وأمي-: "فإنّ الكلمة الواحدة من سب النبي ﷺ لا تحتمل بإسلام ألوف من الكفار!

ولئن يظهر دين الله ظهورًا يمنع أحدًا أن ينطق فيه بطعن؛ أحب إلى الله ورسوله من أن يدخل فيه أقوام وهو منتهك مستهان"!

وكان يقول: "وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر؛ أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات".

ويقول: "وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه؛ يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله، فما ظنك بالذي لم يحم حول السيئات؟ ولم يعرها طرفه قط؟ ولم تحدثه نفسه بها؟ بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات.

فهل هذا وذاك سواء؛ بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك! وحاله أعظم وأعلى ونوره أتم وأقوى".

وقال: "وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة".

وقال: "وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإنّ المسلم لو أسره كافر؛ أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات".

- وهذه النفس الأبيّة والفتوة التيمية كان لها أثرها في آراء ابن تيمية، وجراءته في أحكامه على الأشخاص والطوائف.

فمن صلابته العلمية أنه كان يجهر بفتوى الطلاق ثلاثًا واحدة، وكان المفتي بها في ذلك الوقت يُدفع في صدره، وينكر عليه، وخرجت المراسم السلطانية مرة بعد أخرى بمنعه من الفتيا بذلك، وهو مع ذلك يصر على رأيه، ويثبت على فتواه. وكان بعض المفتين بها يسرون، كما كان جده المجد ابن تيمية يصنع، فإنّه كان يفتي بها سرًا، وهو من هو في جلالته ورتبته.

وكما جاء في فتواه بمنع ابن المرحل الشافعي من إمامة جامع دمشق، وكان قد كتب له السلطان بهذه الولاية، فتصلب ابن تيمية وغيره من الفقهاء، ومنعوا إمامته حتى جاء الأمر السلطاني بمنعه.

ومن ذلك قوله لأبي حيان الأندلسي وقد تكلم معه في مسائل من العربية، فاحتج أبو حيان بكلام سيبويه، فقال ابن تيمية: يفشر سيبويه! ما كان سيبويه نبي النحو ولا كان معصومًا، بل أخطأ في "الكتاب" في ثمانين موضعًا ما تفهمها أنت!

وهذا كان شديدًا على أبي حيان، ولذا انحرف عن ابن تيمية ولم يعد له من قبل.

ومن لطيف ما نقله عنه البلقيني أنه ذكر مسألة فقال فيها: هذه المسألة ليست في كتاب، فقال بعض من كان يعارضه: هذه في ألف كتاب!

فكان ابن تيمية إذا ذكر هذه المسألة بعد يقول: هذه ليست في كتاب، وقال الكذاب: هذه في ألف كتاب"!

وأحسب أن أكثر الأسباب التي جعلت شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا النحو من القوة والشكيمة؛ توكله على الله، وانصرافه عن الناس، واستهتاره بذمهم ومدحهم.

وقد كان يوصي طلابه بمثل هذه المعاني، كما ذكر ابن الحبّال أن الشيخ أوصاه: "لا تقصد رضا الناس بأقوالك، ولا بأفعالك.. بل إذا عرض أمر فيه طاعة الله أقدم عليه، ولو أن في قبالته ألفًا يذمونك، فإن الله يكفيك شرهم.. وإذا عرض لك أمر فيه معصية؛ احذر ثم احذر أن تقدم عليه، ولو أن في قبالته ألفًا يشكرونك، فإن الله يسلطهم عليك!

ثم يقول ابن الحبال: ولقد وجدت –والله– في مدة عمري لهذه الوصية ثمرات عجيبة".

والله أعلم.